الفصل الخامس: الخاتمة والتوصيات

أ. الخاتمة

يُقدّم هذا الفصل خلاصةً شاملةً لأبرز ما توصّل إليه البحث من نتائج، وذلك بالإجابة المباشرة عن أسئلته الثلاثة. ثم يُعرّج على حدود البحث ومحدوديته، قبل أن يختتم بجملة من التوصيات الموجّهة للباحثين والمربين والمهتمين بحقل الدراسات العروضية في الأدب الإسلامي.

انطلق هذا البحث من ثلاثة أسئلة بحثية تتعلق بالبنية العروضية لمنظومة البيقونية. وبعد إجراء التحليل العروضي التفصيلي لأبياتها الأربعة والثلاثين، تبيّنت الإجابات الآتية:

أ. بنية البحر في منظومة البيقونية

تقوم منظومة البيقونية بأسرها على بحر الرجز التام بتفعيلته المتكررة مستفعلن ست مرات في كل بيت ثلاث في الصدر وثلاث في العجز دون استثناء في أيٍّ من الأبيات الأربعة والثلاثين. وهذا الاختيار لبحر الرجز قرارٌ وظيفي واعٍ يعكس ملاءمة هذا البحر للنظم التعليمي الديني من حيث انتظام إيقاعه وخفّته وقابليته للحفظ.

وقد كشف التحليل العروضي التفصيلي لهذه الأبيات الأربعة والثلاثين عن توزّعها على أنماط متعددة من الزحافات والعلل. فقد جاء النمط السالم الخالي من أي زحاف أو علة هو الأكثر هيمنةً، إذ بلغ سبعةَ عشر بيتاً يُمثّل نصف مجموع الأبيات تماماً، وذلك في الأبيات: ٥، ٦، ٨، ٩، ١٢، ١٣، ١٥، ١٦، ١٩، ٢٠، ٢٢، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣١، ٣٤.

أما السبعة عشر بيتاً الأخرى فقد شهدت تنوّعاً في أنواع العلل والزحافات؛ إذ وردت علة القطع في الضرب وحده في أربعة أبيات (١، ٢، ٣، ١٠)، وامتدّت علة القطع لتشمل العروض والضرب معاً في سبعة أبيات (٧، ١١، ١٤، ٢١، ٢٤، ٣٠، ٣٢)، لتكون أكثر أنواع العلل تكراراً بعد السلامة. وقد اقترن الخبن بالقطع في الضرب مُنتجاً تفعيلة فاعلن في بيت واحد (البيت ٤)، بينما طالَ الخبن العروضَ والضربَ معاً في أربعة أبيات (١٧، ١٨، ٢٥، ٣٣)، ولم يُسجَّل الخبن المضاعف المُفضي إلى فَعْلُن إلا في بيت واحد (البيت ٢٣).

ومما تكشفه هذه النتائج مجتمعةً أن الشاعر يميل إلى الحفاظ على سلامة الوزن في غالب أبياته، وأن الانزياحات العروضية حين تقع تتمركز في الضرب تحديداً، وهو ما يتوافق مع المألوف في الشعر العربي الكلاسيكي من التسهيل في نهاية البيت دون المساس ببنيته الإيقاعية الكبرى.

ب. أنماط القافية في منظومة البيقونية

تتنوّع قوافي المنظومة بتنوّع حروف رويّها التي بلغت ثلاثة عشر حرفاً مختلفاً موزّعةً على أربعة وثلاثين بيتاً، وهو ما يكشف عن طابع تعليمي واضح لا يتقيّد بوحدة الروي المعهودة في القصيدة العمودية. وعلى صعيد حروف الروي، تصدّرت اللام المشهدَ بوصفها أكثر الحروف توظيفاً بسبعة أبيات (١، ٣، ٤، ٩، ١٤، ١٧، ٢١)، تلتها النون بستة أبيات (٨، ١٥، ١٨، ١٩، ٢٥، ٣٣). وتوزّعت بقية الحروف بنسب أقل، إذ جاءت كلٌّ من التاء والميم والدال في ثلاثة أبيات لكل منها، وورد كلٌّ من الهاء والطاء والعين والفاء في بيتين، في حين اقتصر كلٌّ من الألف والراء والثاء والقاف على بيت واحد فحسب.

أما على صعيد نوع القافية، فقد هيمنت القافية المقيّدة ذات الروي الساكن هيمنةً واضحة بخمسة وعشرين بيتاً، في مقابل تسعة أبيات فحسب جاءت بقافية مطلقة مصحوبة بحرف الوصل غالباً الألف الإشباعية في الأبيات (١، ٣، ١٠، ١١، ١٤، ٢١، ٢٤، ٣٠، ٣٣).

وتُثبت هذه النتائج مجتمعةً أن منظومة البيقونية شأنها شأن سائر المنظومات التعليمية لا تلتزم رويّاً واحداً، بل تُنوّع قوافيها خدمةً للمضمون العلمي؛ كما أن غلبة القافية المقيّدة تُعزّز طابعها التقريري وتمنحها نبرةً حازمة تناسب سياق التأصيل العلمي ووضوح المعنى وسهولة الحفظ.

ج. إسهام البحر والقافية في تشكيل الإيقاع ووضوح البنية

أثبت البحث أن للبحر والقافية إسهاماً وظيفياً مباشراً في تشكيل الإيقاع وتوضيح البنية على أربعة مستويات: فبحر الرجز يُنتج نبضاً نبريّاً ثابتاً يُيسّر الحفظ؛ والزحافات والعلل تُضفي تنويعاً إيقاعياً يُبرز حدود الوحدات المعرفية؛ والقافية المقيدة تُعلن بوقفتها الحادة نهاية كل بيت بوضوح؛ وتغيّر حرف الروي يُسهم في الفصل المعرفي بين المصطلحات. وبذلك يتضح أن الإيقاع في منظومة البيقونية ليس زينةً أدبية بل هو شريكٌ فاعل في العملية التعليمية.

ب. قيود البحث

على الرغم من شمولية التحليل العروضي المُقدَّم في هذا البحث وعمقه، فإنه لا يخلو من جملة من المحدوديات ينبغي الإشارة إليها بصدق علمي:

أ. محدودية الموضوع: اقتصر البحث على تحليل الأبيات الأربعة والثلاثين من منظومة البيقونية دون تناول المقدمات أو الشروح أو المتون ذات الصلة. كما أن التحليل تناول الجانبين العروضي والقافوي فحسب، ولم يتوسّع في الجوانب البلاغية أو الدلالية أو الأسلوبية للمنظومة.

ب. محدودية المنهج: اعتمد البحث المنهج الوصفي النوعي القائم على التحليل النصي، دون الاستعانة بأدوات التحليل الصوتي الآلي (كبرامج تحليل الطيف الصوتي أو قواعد البيانات الشعرية الرقمية) التي قد تُضيف بُعداً تجريبياً موضوعياً للنتائج.

ج. محدودية الإطار النظري: ركّز البحث على ثلاث نظريات رئيسية (علم العَروض، وعلم القوافي، والدلالة الصوتية عند ابن جني). ولم يستعن بنظريات معاصرة في علم اللسانيات الإيقاعية (Prosodics) أو علم نفس الذاكرة الشعرية، وهو ما قد يُثري التحليل ويُعمّق تفسيراته.

د. محدودية المقارنة: لم يُجرِ البحث مقارنةً منهجية بين منظومة البيقونية ومنظومات تعليمية إسلامية أخرى (كالجزرية والألفية)، مما يُضيّق نطاق التعميم للنتائج.

ج. التوصيات

1. التوصيات للأبحاث المستقبلية

بناءً على النتائج والمحدوديات السابقة، يُوصي البحث بالمسارات البحثية الآتية:

أ. توسيع نطاق التحليل العروضي على المنظومات التعليمية الأخرى: يُوصى بإجراء دراسات مماثلة على المنظومة الجزرية في علم التجويد، وألفية ابن مالك في النحو، ومنظومات الفقه والعقيدة؛ للكشف عن أنماط بحورها وقوافيها ومقارنة وظائفها الإيقاعية بما كشفه هذا البحث في البيقونية.

ب. دراسة مفهوم "القافية المعرفية الفاصلة": يُوصى بإجراء بحث متخصص يختبر الفرضية التي طرحها هذا البحث وهي أن تنوع الروي في المنظومات

التعليمية يُؤدي وظيفة فصل معرفي من خلال منهج تجريبي يقيس أثر ذلك فعلياً على قدرة الحفظ عند الطلاب.

ج. توظيف أدوات اللسانيات الحاسوبية: يُوصى بتطبيق أدوات التحليل الصوتي الحاسوبي والإيقاعي الرقمي على منظومة البيقونية ونظائرها؛ للتحقق من النتائج العروضية بأدوات موضوعية وكمية.

د. الدراسة المقارنة بين التقاليد الشعرية التعليمية: يُوصى بمقارنة المنظومات التعليمية الإسلامية بنظيراتها في التقاليد الأدبية الأخرى (كالشعر التعليمي اليوناني اللاتيني أو الأدب الهندي الكلاسيكي) بحثاً عن أنماط كونية مشتركة في توظيف الإيقاع لخدمة التعلم.

2. التوصيات للتطبيق أو السياسة

كشفت نتائج هذا البحث عن إمكانات تربوية واسعة يُمكن استثمارها على الصعيدين المؤسسي والميداني:

أ. دمج البُعد العروضي في تدريس منظومة البيقونية: يُوصى معلمي علم الحديث والمدارس الإسلامية بأن يُدرجوا — إلى جانب تدريس المحتوى العلمي للمنظومة — تنبيهَ الطلاب إلى إيقاع بحر الرجز ووظيفته الحفظية، واستثمار تنوع الروي أداةً لتمييز المصطلحات؛ مما قد يُحسّن كفاءة الحفظ ويُعمّق الفهم.

ب. إعداد مواد تعليمية متكاملة: يُوصى بإعداد مواد تعليمية للمنظومة تجمع بين الشرح العلمي لمصطلحات الحديث من ناحية، والشرح العروضي الصوتي للبنية الإيقاعية من ناحية أخرى؛ لتقديم تجربة تعليمية شاملة تُنمّي لدى الطالب الملكة العلمية والذائقة الأدبية في آنٍ واحد.

ج. إدراج تحليل المنظومات في مناهج علم العروض الجامعي: يُوصى أقسام اللغة العربية وآدابها بإدراج تحليل المنظومات التعليمية الدينية ضمن مقررات علم العروض والقوافي بوصفها نماذج تطبيقية تُثري التدريس وتُقرّب الطالب من التراث.

د. إحياء منهج التعليم بالمنظومات: يُوصى القائمين على مناهج التعليم الإسلامي بإعادة النظر في إحياء منهج التعليم بالمنظومات المنظومة في المراحل الأولى من التعليم الديني، مستفيدين مما كشفه هذا البحث من أن الإيقاع الشعري ليس زينةً بل أداةٌ تربوية متكاملة تُيسّر الحفظ وتُرسّخ المعرفة.

وفي الختام، يأمل هذا البحث أن يكون إسهاماً متواضعاً في مسيرة الدراسات العروضية العربية، وأن يكون جسراً بين التراث الأدبي الإسلامي والدراسة اللغوية المعاصرة، وأن تكون نتائجه نقطةَ انطلاق لبحوث أوسع تكشف عن الإعجاز التربوي الذي أودعه علماء الإسلام في قوالب شعرية جمعت بين جمال البيان وعمق العلم.

UINSSC